الصمت بوصفه حضوراً

الفضاءات الوجدانية للألم والرعاية في دور المسنين

مقاربة أنثروبولوجية

بقلم

د. حسن هاشم حمود

باحث في مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

مقدمة

لا يمكن فهم الصمت بوصفه مجرد غياب للصوت أو امتناع عن الكلام؛ فهو ظاهرة اجتماعية وثقافية متعددة الدلالات، تتشكل معانيها وفقاً للسياقات التي يظهر فيها، ولطبيعة العلاقات التي تحكم الأفراد والجماعات، فمن منظور الأنثروبولوجيا اللغوية، لا يمثل الصمت نقيضاً للكلام بالضرورة، بل قد يكون شكلاً من أشكال التواصل، يحمل دلالات وجدانية وأخلاقية وسياسية، ويؤدي أدواراً متباينة في تنظيم العلاقات الاجتماعية وإعادة إنتاجها أو الاعتراض عليها.

ويتحدد معنى الصمت من خلال السياق الذي يحدث فيه، والجهات التي تمارسه أو تفرضه، والأشخاص الذين يتأثرون به، فضلاً عن التوقعات الاجتماعية والثقافية المحيطة به، فقد يعبر الصمت عن الحزن أو الألم أو الخوف أو القمع أو العجز عن التعبير عن تجربة مؤلمة، لكنه قد يمثل أيضاً استراتيجية لحماية الذات، أو رفضاً للإفصاح، أو مقاومةً لمحاولات السيطرة على المعرفة والتجربة الشخصية، ولذلك فإن تفسير الصمت يتطلب تجاوز التصورات الثنائية التي تضعه في مقابل الصوت.

ويعد عالم الأنثروبولوجيا اللغوية كيث باسو (Keith Basso) من أوائل الباحثين الذين أوضحوا، من خلال دراساته عن الأباتشي الغربيين (Western Apache)[1]، كيف يمكن للصمت أن يؤدي دوراً فاعلاً، وأن يشكّل دفاعاً واعياً واستراتيجياً يُستخدم لاستبعاد البيض أو غيرهم من الغرباء، أو إرباكهم، أو إثارة حيرتهم، وكذلك للاستجابة لحالات عدم اليقين وعدم القدرة على التنبؤ،ويوضح باسو أن الصمت يمثل استجابة فعّالة لعدم اليقين وعدم القدرة على التنبؤ، ليس في التعامل مع الغرباء فحسب، بل أيضاً في المواقف التي تتطلب من الأباتشي الغربيين التعامل مع أفراد من جماعتهم القبلية يُنظر إليهم على أنهم واقعون تحت سيطرة انفعالات لا يمكن ضبطها، سواء أكانت ناجمة عن الحزن أم الغضب أم الانفصال القسري طويل الأمد.

لذلك تكتسب دراسة الصمت لدى المسنين أهمية إثنوغرافية؛ إذ تساعد على فهم ما قد يعبر عنه من مشاعر وتجارب يصعب الحديث عنها، مثل الوحدة أو الفقد أو التهميش، ويتطلب ذلك الانتباه إلى صمتهم وترددهم وتعبيراتهم غير المباشرة، وفهمها في سياق علاقاتهم الأسرية والاجتماعية، دون افتراض أن الصمت دليل على العجز أو الرضا.

اولاً: الصمت بين التواصل غير اللفظي وحدود السرد

تثير دراسة الصمت سؤالاً أساسياً عن العلاقة بين اللغة والتواصل: **هل يمكن أن يحدث التواصل من دون كلمات؟ وهل يستطيع الإنسان أن يشارك الآخرين تجربة معينة حتى عندما لا يمتلك القدرة على التعبير عنها في صورة خطاب واضح؟**

---

[1] الأباتشي الغربيين (Western Apache) هم مجموعة من قبائل السكان الأصليين لأمريكا (الهنود الحمر) الذين يعيشون تاريخياً وثقافياً في منطقة جنوب غرب الولايات المتحدة، وتحديداً في معظم أجزاء ولاية أريزونا الحالية، وهم يشكلون فرعاً رئيسياً من شعب الأباتشي الأوسع، ويتميزون عن غيرهم (مثل أباتشي شيريكاهوا أو أباتشي جيكاريلا) بلهجتهم اللغوية الخاصة وروابطهم الثقافية والجغرافية المشتركة.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

توضح الكتابات الأنثروبولوجية المتعلقة بالتواصل غير اللفظي والرعاية أن غياب اللغة لا يعني بالضرورة انقطاع التفاعل، فقد يستمر الأشخاص في تبادل الانتباه، أو المشاركة في نشاط مشترك، أو الاستجابة لحضور بعضهم بعضاً، من خلال أشكال من التواصل لا تعتمد على الكلام المنطوق أو المكتوب، وتكتسب هذه الفكرة أهمية في دراسة كبار السن في دور المسنين، ولا سيما الأشخاص الذين يواجهون صعوبات في التعبير اللفظي أو في تنظيم رواياتهم عن تجاربهم، ففي مثل هذه الحالات، قد يؤدي التركيز الحصري على القدرة على الكلام إلى إغفال أشكال أخرى من المشاركة والتواصل، لكن من الضروري التمييز بين الاعتراف بأهمية التواصل غير اللفظي وبين من يستطيع قراءة معانيه بصورة مباشرة، فالنظرة أو حركة الجسد أو الصمت الطويل لا يحمل أي منها معنى ثابتاً يمكن تحديده خارج السياق، ولا بد من دراسة هذه العلامات ضمن التفاعل، والاستعانة بما يقدمه الشخص نفسه من تفسيرات عندما يكون قادراً وراغباً في ذلك.

كما أن حدود السرد لا تعني بالضرورة أن التجربة غير قابلة للفهم؛ بل تعني أن المعرفة بها قد تحتاج إلى طرائق مختلفة، وأن بعض جوانبها قد تظل غامضة أو غير مكتملة، وقد يكون من الأدق أن يعترف الباحث بهذه الحدود بدلاً من تحويل التجربة إلى رواية متماسكة لا تعكس بالضرورة الطريقة التي عاشها بها صاحبها.

ومن هنا فإن الإصغاء إلى الصمت لا يعني البحث عن خطاب خفي وراءه فحسب، بل يتطلب أيضاً مراجعة الافتراض القائل إن كل تجربة مهمة ينبغي أن تكون قابلة للتحويل إلى كلمات واضحة حتى تصبح جديرة بالاهتمام.

ثانياً: الصمت وحدود التعبير عن التجربة الإنسانية

لا يمكن اختزال التجربة الإنسانية في ما يستطيع الأفراد التعبير عنه بالكلمات؛ فثمة جوانب من الحياة الوجدانية يصعب تحويلها إلى روايات مكتملة، وقد تظل بعض الخبرات حاضرة في حياة الإنسان من دون أن تجد طريقها إلى التعبير اللفظي، ومن هذا الباب لا يُفهم الصمت بوصفه غياباً للكلام فحسب، بل بوصفه مجالاً تتجلى فيه تجارب ومشاعر وعلاقات قد لا يستطيع الأفراد الإفصاح عنها بصورة مباشرة، أو لا يمكن لأي لغة ان تعبر عنها وتكتسب هذه المسألة أهمية خاصة عند قراءتها لدى شريحة المسنين في دور الإيواء لما تنطوي عليه من ذكريات وألم الفراق وخيبة الامل بمن كانوا في أحد الايام قد بذلت جهود كبيرة من اجل تنشئتهم ورعايتهم؛ إذ قد يجلس أحد النزلاء فترات من دون أن يتحدث، أو يشارك الآخرين المكان من غير أن يشاركهم الحوار، أو يكتفي بمراقبة ما يجري حوله، وقد يُفسَّر هذا السلوك باعتباره انعزالاً أو انسحاباً من الحياة الاجتماعية، غير أن المقاربة الأنثروبولوجية تتيح طرح سؤال مختلف: **ما الذي يمكن أن يحضر في تجربة الإنسان عندما يغيب الكلام؟**

قد تتصل هذه اللحظات بذكريات المنزل والأسرة، أو بأشخاص غابوا عن الحياة اليومية، أو بعلاقات ما زالت تحتفظ بأهميتها العاطفية رغم تراجع التواصل الفعلي، وقد ترتبط أيضاً بتجارب الفقد وتغير الأدوار الاجتماعية، أو بصعوبة التعبير عن مشاعر لا يجد المسن الكلمات المناسبة لوصفها، وفي حالات أخرى، قد لا يحمل الصمت أيّاً من هذه الدلالات.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

وتكتسب مسألة العيش وسط اسرة مستقرة مكتملة البناء الاجتماعي أهمية خاصة في المجتمع العراقي، حيث تحتل الأسرة مكانة محورية في حياة الفرد، ولا سيما في مراحل الشيخوخة، إذ ترتبط رعاية الوالدين في المخيال الاجتماعي بمنظومة من القيم الأخلاقية والدينية والاجتماعية التي تشمل البرّ والوفاء والتكافل وصلة الرحم، وفي ظل هذه التوقعات، قد لا يقتصر ابتعاد المسن عن أسرته على الانتقال من المنزل العائلي إلى دار المسنين، بل قد يرتبط في بعض الحالات، بشعوره بأنه فقد موقعه السابق داخل بنية اسرته، أو أن حضوره لم يعد يحظى بالاهتمام الذي اعتاد عليه.

وفي هذا الإطار يصبح الصمت مدخلاً لفهم ما قد يصعب التعبير عنه بصورة مباشرة، فقد يمتنع المسن عن الحديث عن أبنائه، أو يكتفي بإجابات مقتضبة عندما يُسأل عن زياراتهم، أو يتجنب إظهار خيبته من انقطاع التواصل معهم، وقد يستمر في المقابل ذكرهم بمحبة، أو الدفاع عنهم، أو تبرير غيابهم، حتى عندما يشعر بالوحدة أو الحزن، ولا تعني هذه المظاهر بالضرورة وجود ألم مكتوم في كل حالة، لكنها تتيح طرح أسئلة عن العلاقة بين الصمت والمشاعر التي قد يجد الإنسان صعوبة في الإفصاح عنها، خصوصاً عندما تتعلق بأشخاص تربطه بهم روابط الرحم والقرابة والتوقعات العاطفية، وبذلك لا يعود السؤال مقتصراً على أسباب صمت المسن، بل يمتد إلى ما يحمله هذا الصمت من معانٍ محتملة، وإلى الظروف الاجتماعية والعاطفية التي تجعله يختار الكلام أحياناً والامتناع عنه أحياناً أخرى.

ثالثاً: الفضاءات الوجدانية للصمت

تساعدنا فكرة الفضاءات الوجدانية على فهم الكيفية التي يمكن بها للصمت أن يصبح مجالاً تتشكل داخله العلاقة بين الأشخاص، حتى عندما يكون الحوار محدوداً أو غائباً، فالصمت المشترك لا يعني بالضرورة انقطاع التواصل؛ إذ قد يستمر الأشخاص في تقاسم المكان والوقت والانتباه، من دون الحاجة إلى ملء اللحظة بالكلمات.

فالصمت قد يكون جزءاً من الحياة الوجدانية والاجتماعية للفرد، حتى عندما لا يتحول إلى خطاب يستطيع الآخرون فهمه بسهولة، وتتصل هذه الفكرة بالنقد الأنثروبولوجي للتصورات التي تجعل الصوت واللغة والسرد اللفظي المدخل الأساسي لفهم الذاتية الإنسانية، فحين تُفهم الذات من خلال قدرتها على رواية تجربتها والتعبير عن نفسها، قد تُهمَّش أنماط أخرى من الوجود والتواصل، ولا سيما لدى الأشخاص الذين يصعب عليهم التعبير عن خبراتهم بالكلمات، أو الذين لا يرغبون في تحويل تجاربهم إلى روايات متاحة للآخرين، ومن ثم فإن تسليط الضوء على الصمت لدى هذه الشريحة من المجتمع تقتضي توسيع مفهوم التواصل ليشمل الحضور الجسدي، والانتباه المتبادل، والوقت المشترك، والإيماءات، وأشكال المشاركة التي لا تعتمد بالضرورة على الكلام.

ففي دراسة طبقت في هولندا على المسنين والأشخاص المصابين بالخرف في دار رعاية للمسنين، كما وصفتهم روما تشاترجي (2006). وانطلاقاً من العمل المؤثر الذي قدمه كيتوود (Kitwood, 1998) حول ثقافة رعاية المصابين بالخرف تستكشف تشاترجي التواصل بوصفه عنصراً من عناصر الرعاية في أجنحة المستشفيات، مسلطةً الضوء على الأهمية المتزايدة للصمت باعتباره مصدراً للتواصل غير اللفظي، ويشكل عالمهم المعيش.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

فإن دراسة الصمت في دور المسنين لا تهدف إلى الكشف عن معنى خفي ثابت وراء كل امتناع عن الكلام، وإنما إلى فهم العلاقة بين الصمت والألم والذاكرة والانتماء، وكيف يستطيع الإنسان أن يظل حاضراً عاطفياً في علاقات قد غاب حضورها الفعلي، ومن هنا يصبح الإصغاء إلى الصمت مدخلاً لفهم تجربة المسن، لا باعتباره شخصاً فقد علاقاته السابقة فحسب، بل باعتباره إنساناً ما زال يحمل ذكرياته وتوقعاته وحاجته إلى الاعتراف والاهتمام، فليس كل ألم قابلاً للإزالة، وليس كل وضع مؤلم قابلاً للتغيير المباشر، وقد تكون الاستجابة الإنسانية المناسبة أحياناً هي الاستماع والمرافقة والاعتراف بصعوبة التجربة.

ومن هذا الباب لا يمثل الصمت المشترك بالضرورة فشلاً في التواصل؛ فقد يتيح للأشخاص أن يكونوا معاً من دون مطالبة أحدهم بتقديم تفسير لما يشعر به، أو تحويل تجربته إلى حكاية واضحة ومكتملة، كما ان الامر لا يتعلق فقط بالأشخاص الذين لا يخدمهم مفهوم الصوت على أفضل وجه، أو الذين لا يمكن تمثيلهم بصورة مناسبة من خلاله، بل إن الصوت نفسه قد يخذلنا جميعاً؛ إذ إنه يضع أنماطاً معينة من الذاتية المتماسكة في الواجهة، على حساب أشكال التجربة والمعرفة والوعي بالذات التي تكون أقل تنظيماً، أو غير مكتملة التشكّل، أو يصعب التعبير عنها بطريقة أخرى، ويمكن الإفادة من هذه المقاربة في دراسة الرعاية داخل دور المسنين، فقد يجلس أحد العاملين إلى جانب نزيل مسن، أو يرافقه في نشاط يومي، أو يبقى معه بعد انتهاء الحديث، من دون أن تكون هناك حاجة إلى استمرار الحوار، وقد يكتسب هذا الحضور أهمية خاصة إذا شعر المسن بأن الآخرين لا يتعاملون معه بوصفه متلقياً للخدمات فحسب، بل بوصفه إنساناً له تاريخ وعلاقات وذكريات تستحق الاهتمام.

رابعاً: الصمت بين الرعاية والكرامة

تتجاوز الرعاية في هذا المجال تقديم الاحتياجات المادية إلى الاعتراف بالإنسان بوصفه شخصاً له خصوصيته وكرامته وعالمه الوجداني، فقد تتوافر للمسن خدمات الطعام والدواء والنظافة والإقامة، لكنه يظل بحاجة إلى علاقة اجتماعية تمنحه الشعور بأن وجوده ليس عبئاً، وأن خبراته السابقة لا تزال جديرة بالاهتمام.

وتوضح دراسة كلارا هان، Life in Debt، إمكان ارتباط الصمت بالحفاظ على الكرامة في سياقات تتسم بالهشاشة الاقتصادية والاجتماعية، ففي بعض الظروف، قد يمتنع الأشخاص عن طلب المساعدة بصورة مباشرة، أو يتجنبون الإفصاح عن تجارب معينة حمايةً لأنفسهم أو لأفراد أسرهم، ويكشف هذا المنظور أن العلاقة بين الصمت والرعاية ليست بسيطة؛ فالصمت قد يحمي الكرامة في موقف، لكنه قد يحجب المعاناة أو يحد من إمكان الحصول على المساعدة في موقف آخر.

ويمكن الاستفادة من هذا التمييز عند دراسة كبار السن، فقد يتجنب المسن الشكوى من أبنائه، أو يمتنع عن الحديث عن احتياجاته، أو يقلل من وصف معاناته حتى لا يظهر بمظهر الشخص المحتاج أو الذي يشكل عبئاً على الآخرين، غير أن هذه الاحتمالات لا يجوز التعامل معها باعتبارها حقائق عامة عن المسنين؛ بل ينبغي استكشافها من خلال تجاربهم ورواياتهم والسياقات التي يعيشون فيها، وفي الوقت نفسه فإن احترام الصمت لا يعني تجاهل صاحبه أو افتراض أنه لا يحتاج إلى شيء، فثمة فرق بين احترام رغبة الشخص في عدم الكلام

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

وبين تركه في عزلة لا يملك القدرة على تغييرها، ويتطلب التمييز بين الحالتين معرفة طبيعة العلاقة، وملاحظة رغبات المسن، وإتاحة الفرصة له للتعبير من دون ضغط، وعليه لا تتمثل الرعاية في كسر الصمت بالضرورة، بل في إنشاء بيئة تتيح الكلام عندما يرغب المسن فيه، وتحترم امتناعه عنه عندما يختار ذلك، وتضمن ألا يتحول صمته إلى ذريعة لإهمال احتياجاته أو التقليل من شأن تجربته.

خامساً: الصمت والألم الذي يستمر في الحياة اليومية

لا يظهر الألم دائماً في صورة شكوى مباشرة أو رواية واضحة عن تجربة مؤلمة؛ فقد يستمر داخل تفاصيل الحياة اليومية، ويتداخل مع الأنشطة والعلاقات والعادات التي تبدو عادية من الخارج، ومن هنا تبرز أهمية أفكار فينا داس في دراسة العلاقة بين العنف والألم والحياة اليومية، ولا سيما اهتمامها بكيفية استمرار آثار التجارب الصعبة داخل الممارسات العادية، من دون أن تتحول بالضرورة إلى سرد مكتمل عن الماضي، ولا يعني ذلك أن كل صمت هو تعبير عن الألم، أو أن كل تجربة مؤلمة لا يمكن روايتها، بل تكمن أهمية هذه المقاربة في أنها تتيح دراسة الكيفية التي يعيش بها الإنسان مع آثار الفقد أو المعاناة، حتى عندما لا يستطيع التعبير عنها باستمرار أو لا يرغب في الحديث عنها.

وفي دار المسنين قد يرتبط الألم بالابتعاد عن الأسرة، أو فقدان المنزل، أو تغير نمط الحياة، أو تراجع الاستقلالية، أو الشعور بأن الدور الذي كان يشغله المسن داخل أسرته ومجتمعه لم يعد كما كان، وقد تتداخل هذه التجارب بعضها مع بعض، بحيث لا يكون الحزن مرتبطاً بحدث واحد، بل بتحول أوسع في علاقة الشخص بماضيه وحاضره، فقد يستعيد المسن في ذاكرته تفاصيل منزله السابق، أو عمله، أو دوره في تربية أبنائه، أو موقعه بين أفراد أسرته، وقد تظهر هذه الذكريات في حديث عابر، أو في الاحتفاظ بغرض شخصي، أو في لحظات صمت لا يستطيع المحيطون به تحديد معناها بدقة، وهنا يمكن فهم الصمت بوصفه إحدى الصور التي يستمر من خلالها الماضي في الحضور داخل الحاضر، فالماضي لا يعيش في الذاكرة بوصفه مجموعة من الأحداث المنفصلة عن الحياة الراهنة؛ بل قد يستمر في تشكيل المشاعر والتوقعات والعلاقات، حتى عندما لا يتحدث الشخص عنه بصورة مباشرة.

وتساعد هذه المقاربة على الابتعاد عن تصور الحزن والألم باعتباره مرحلة منفصلة تنتهي عندما يتوقف الإنسان عن الحديث عن الفقد، فقد يصبح الحزن جزءاً من إيقاع الحياة اليومية، يظهر في أوقات معينة ويخفت في أوقات أخرى، ويتعايش مع لحظات الراحة والتواصل والأنشطة الاعتيادية.

ومن ثم لا ينبغي النظر إلى صمت المسن باعتباره توقفاً عن الحياة أو انفصالاً كاملاً عنها، فقد يستمر الإنسان في ممارسة حياته، وبناء علاقاته، والتفاعل مع محيطه، بينما يحمل في الوقت نفسه آثار خسارات لم تختفِ من تجربته.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

سادساً: الصمت العاطفي والغياب الأسري

تتضح العلاقة بين الصمت والألم بصورة خاصة عندما يشعر المسن بأن أسرته ابتعدت عنه، أو عندما يعاني إحباطاً عاطفياً ناتجاً عن خيبة الأمل في أشخاص أحبهم ووثق بهم، ولا سيما عندما يشعر بأن أبناءه أو المقربين منه قد تخلوا عنه أو خذلوه في مرحلة يحتاج فيها إلى اهتمامهم ورعايتهم، وقد يتجنب الحديث عن هذا الألم، أو يبرر غيابهم، أو يخفي مشاعر الحزن والخذلان خلف الصمت، تجنباً للشعور بالانكسار، وفي هذه الحالة لا يكون الصمت مجرد امتناع عن الكلام، بل قد يصبح تعبيراً عن إحباط يصعب الإفصاح عنه، حين يأتي الخذلان من أشخاص يحتلون مكانة عاطفية عميقة في حياة المسن، الاحباط الذي عندما تتراجع الزيارات والاتصالات بينه وبين أبنائه وأقاربه، ففي مثل هذه الحالات، قد لا يقتصر الألم على غياب أفراد الأسرة عن الحياة اليومية، بل يمتد إلى تغير موقع المسن داخل شبكة علاقاته وإلى شعوره بأن المكانة التي كان يحتلها لم تعد كما كانت.

وقد يجد المسن صعوبة في التوفيق بين استمرار تعلقه بأبنائه وبين شعوره بالخيبة أو الإهمال، فالتحدث عنهم قد يستدعي الحزن، والشكوى منهم قد تبدو اعترافاً مؤلماً بتغير العلاقة، بينما قد يدفعه التعلق بهم إلى تجنب الحديث عن الجوانب التي تؤلمه، وقد يصبح الصمت في بعض هذه الحالات، مرتبطاً بعلاقة لم تنتهِ عاطفياً رغم تراجع حضورها في الواقع اليومي، فالأسرة قد تغيب عن المكان، لكنها تظل حاضرة في ذاكرة المسن وتوقعاته وانتظاره، وقد لا يتحدث عن الزيارة، لكنه يظل يأمل حدوثها؛ وقد لا يشتكي من غياب أبنائه، لكنه يستمر في التفكير فيهم، ويكشف هذا التداخل عن مفارقة بين الحضور والغياب: غياب الأشخاص في الحياة اليومية، واستمرار حضورهم في العالم الوجداني؛ وتراجع التواصل المباشر، مع بقاء العلاقة ذات أهمية عاطفية.

وتتيح أعمال آنا دراغوجلوفيتش حول الصمت العاطفي والعنف واستمرار آثاره عبر الأجيال مدخلاً إضافياً لفهم العلاقة بين ما يُعاش وما يمكن التعبير عنه، فالصمت قد يتشكل داخل علاقات اجتماعية تتداخل فيها العاطفة والسلطة والتوقعات، وقد تتجاوز آثاره اللحظة التي نشأ فيها.

سابعاً: الصمت العاطفي بين الاشتياق وصعوبة الإفصاح

تتيح أعمال آنا دراغويليوفيتش حول الصمت العاطفي التفكير في الصمت بوصفه ظاهرة تتشكل داخل العلاقات الإنسانية، وتتداخل فيها المشاعر مع شروط التعبير عنها، ومع ما يستطيع الأفراد قوله أو يفضلون الاحتفاظ به لأنفسهم، وفي ضوء هذا المنظور يمكن دراسة صمت بعض كبار السن في دور المسنين بوصفه تجربة محتملة تتصل بصعوبة التعبير عن الخيبة أو الاشتياق أو الشعور بالخذلان، فقد يجد المسن حرجاً في الحديث عن ابتعاد أبنائه، أو يتردد في تقديم شكوى صريحة بشأنهم، أو يخشى أن يؤدي الحديث عن الخلافات الأسرية إلى الانتقاص من مكانته أو إلى تعريض أفراد أسرته للوم الآخرين، مما يجعله ذلك يمر بحالة من الحزن أو الحداد أي الحداد على الحضور الغائب والمقصود به هنا ليس الحداد على وفاة شخص، وإنما الحزن على علاقة ما زال أطرافها على قيد الحياة، لكنها لم تعد تمنح الفرد الحضور العاطفي والاجتماعي الذي كان يتوقعه منها، فالمسن الذي ابتعد عن أسرته قد لا يشتاق إلى زيارة الأبناء وحدها، بل إلى استعادة نمط كامل من الحياة كان

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

يشعر فيه بأنه جزء من الأسرة، وأن وجوده مهم في تفاصيلها وقراراتها ومناسباتها، وقد يكون ما يؤلمه ليس غياب الأبناء في حد ذاته، وإنما شعوره بأن دوره في حياتهم قد تراجع، أو أن المكان الذي كان يشغله بينهم لم يعد كما كان، وتتضح أهمية هذا المعنى عند النظر إلى الشيخوخة باعتبارها مرحلة قد تتغير فيها علاقة الفرد بذاته وبالآخرين.

فالأب الذي كان مسؤولاً عن إعالة أسرته، أو الأم التي كرست سنوات طويلة لرعاية أبنائها، قد يجد نفسه أمام واقع مختلف، تتراجع فيه الأدوار التي منحت حياته معنى، بينما يستمر تعلقه العاطفي بالأشخاص الذين ارتبطت بهم تلك الأدوار، وقد يتجلى هذا الحداد في استعادة الذكريات، أو الحديث المتكرر عن المنزل السابق، أو الاحتفاظ بأشياء شخصية، أو انتظار زيارة أحد الأبناء، أو تجنب الحديث عن مستقبل يشعر المسن بأنه لم يعد يملك السيطرة عليه، ومع ذلك لا ينبغي تفسير هذه الممارسات بصورة آلية؛ فالاحتفاظ بالصور قد يعبر عن المحبة والاعتزاز، والحديث عن الماضي قد يكون وسيلة لاستعادة الهوية أو مشاركة الخبرة، وانتظار الزيارة قد يكون تعبيراً طبيعياً عن استمرار العلاقة الأسرية.

وقد يرتبط الامتناع عن الكلام أيضاً باستمرار التعلق العاطفي بالأسرة، فالمسن قد يشعر بالألم بسبب ضعف التواصل، لكنه لا يريد تحويل علاقته بأبنائه إلى موضوع للشكوى أو الإدانة، وقد يفضل الصمت انتظاراً لتغير الظروف، أو حفاظاً على الأمل في استعادة العلاقة السابقة، أو رغبةً في تجنب الحديث عن تجربة يشعر بأنها شخصية وحساسة، وفي مجتمع يحتفظ فيه احترام الوالدين ومكانتهما الأخلاقية بأهمية اجتماعية، قد يتردد بعض المسنين في الإفصاح عن الخلافات العائلية أمام الآخرين، حرصاً على سمعة الأبناء أو خصوصية الأسرة، لاسيما من خلال ما يعرض في بعض البرامج التي تسلط الضوء على بعض هذه الحالات غير أن هذه الإمكانية ينبغي التعامل معها بوصفها فرضية بحثية تحتاج إلى اختبار ميداني، لا باعتبارها سمة ثابتة لدى كبار السن العراقيين أو نتيجة حتمية للقيم الأسرية، فالصمت قد يكون اختياراً لحماية الخصوصية، وقد يكون تعبيراً عن الحرج أو الخوف من الحكم الاجتماعي، وقد يرتبط بالتعب أو بطبيعة الشخصية أو بعدم الثقة بمن يطرح الأسئلة، كما قد يكون المسن راغباً في الحديث، لكنه لا يجد شخصاً يمنحه الوقت الكافي للإصغاء إليه، وهنا تظهر أهمية التمييز بين الصمت بوصفه اختياراً والصمت بوصفه نتيجة لظروف تحدّ من إمكان التعبير.

خاتمة

إن الصمت لدى كبار السن في دور المسنين يفتح مجالاً لدراسة العلاقة بين الألم والحزن والذاكرة والابتعاد الأسري، بعيداً عن اختزال الشيخوخة في الضعف الجسدي أو الحاجة إلى الرعاية المادية. فقد يظل المسن حاضراً في علاقاته الأسرية من خلال ذاكرته واشتياقه وتوقعاته، حتى عندما يتراجع حضور الأسرة في حياته اليومية، وقد يتخذ هذا الحضور صوراً لا تظهر دائماً في الكلام، وإنما تتجلى في الانتظار، واستعادة الذكريات، والاحتفاظ بالأشياء الشخصية، أو اختيار عدم الحديث عن علاقات ما زالت تحتل مكانة مهمة في حياته.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

وعليه فإن القيمة الأنثروبولوجية لدراسة الصمت لا تكمن في محاولة كشف ما لا يقوله المسن فحسب، وإنما في فهم العلاقة بين ما يستطيع التعبير عنه وما يختار الاحتفاظ به لنفسه، وبين حاجته إلى التواصل وحاجته إلى الخصوصية، وبين استمرار تعلقه بأسرته وتغير موقعه داخلها. فالصمت قد يكون علامة على الألم، لكنه قد يكون أيضاً مساحة للكرامة والراحة وحماية العلاقات، ومن ثم فإن فهمه يتطلب الإصغاء إلى الإنسان، لا الاكتفاء بتفسير سلوكه من الخارج.

مصادر

1. Ana Dragojlovic ,Affective silences: Violence, heteropatriarchy, intergenerationality, University of Melbourne,Correspondence, Email: ana.dragojlovic@unimelb.edu.au

2. Deborah Puccio-Den, Mafiacraft An ethnography of deadly silence, Hau Books publications are printed, marketed, and distributed by The University of Chicago Press, 2021, www.haubooks.org.

3. Merav Shohet, The Language of Silence, Department of Anthropology, Boston University, Boston, Massachusetts, USA; Annu. Rev. Anthropol. 2026. 55:307–23 First published as a Review in Advance on July 22, 202

SUSAN SONTAG, THE AESTHETICS OF SILENCE, Aspen no. 5 + 6, item 3, 1967 http://www.ubu.com/aspen/aspen5and6/index.html

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

تأسس مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية في بغداد بموجب شهادة التسجيل الصادرة عن الأمانة العامة لمجلس الوزراء -دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة (1J775330) بتاريخ ٢٠١٢/٤/٢٦، وهو مركز علمي بحثي يهتم بإجراء الاستطلاعات والدراسات الميدانية فضلا عن إعداد الأوراق البحثية والمقالات حول قضايا الحياة المجتمعية للأسرة والمواطن، والدولة بمؤسساتها المختلفة.

- لا يجوز نشر أي من إصدارات المركز ونتاجاته العلمية الا بموافقة خطية صريحة ويمكن الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملا.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية

للتواصل

00964- 7710122232

Alfaidcenter2011@gmail.com

www.al-faidh.com

العراق - بغداد - الكرادة